يوسف السباعى

الثقافة حق الجميع

obeikandl.com

obeikandl.com

إذا كان التعليم هو أحد الخدمات الأساسية التى تلتزم الدولة بأن تكفلها لجميع المواطنين . . وإذا كان الغذاء والكساء والمسكن هى الضرورات التى تعمل الدولة بأجهزتها المختصة على توفيرها للمواطنين . ومن أجل كفالة التعليم ومن أجل توفير هذه الضرورات ترصـــد الدولة فى ميزانيتها عاماً بعد عام عشرات الملايين من الجنيهات وعشرات الملايين من العملات . وتبذل الجهود وتحشد الطاقات فى سبيل تحقيق ذلك فإن الثقافة بدورها قد أصبحت إحدى الخدمات الأساسية التى تلتزم الدولة بتقديمها وتتعهد بإتاحتها للمواطنين على اختلاف أعمارهم وتنوع مشاربهم وتباين اتجاهاتهم ومسالكهم فى الحياة .

وإذا كان دخول الثقافة فى مضمار الخدمات التى تلتزم الدولة بإتاحتها للمواطنين قد جاء متأخراً فى الدور أو فى الترتيب من الناحية التاريخية – ذلك لأن أول ما التزمت به الدول فى نشأتها الأولى أن تقدم خدمات الأمن الخارجى والأمن الداخلى والقضاء بين الناس فى المنازعات فقد أخذت الخدمات التى تقع فى مسئولية الدولة تتتابع وتتزايد وظلت الثقافة حيناً من الدهر تعتبر من ألوان الترف أو أدوات الزينة أو أسباب تزجية الفراغ حتى اكتمل للدولة بنيانها وتباينت مصالح أبنائها وتشعبت

بهم المسالك وتعددت الدروب . وظهر أثر الثقافة فى التفرقة بين المواطنين وفى معايير الحكم على حظهم من التميز أو التفوق أو الموهبة أو النبوغ . ومن ثم أصبح للثقافة معناها وفحواها . وأصبح للثقافة ألوانها وينابيعها ، وأصبح للثقافة روادها ومريدوها . وبدأت الثقافة تتسلل إلى مجمع الخدمات التى تتولاها الدولة والتى تحرص الدولة على توليها ، والتى تدرك الدولة خطرها فى تكوين الإنسان وصياغة حياته وشحذ قدراته وإبراز مواهبه وملكاته . . .

وعلى الرغم من أن الثقافة تعتبر آخر الخدمات التى أخذت الدول نفسها بإتاحتها أو بتوفيرها أو بكفالتها لمواطنيها فقد استطاعت عبر القرنين التاسع عشر والعشرين أن تثبت وجودها فى حياة الدول وأن تؤكد أهميتها وأن تكون فى النهاية أبرز وسائل التفاضل والتمييز بين الدول .

وعلى قدر تقدم الدولة فى مضمار الحضارة على قدر حفاوتها بالثقافة كإحدى الخدمات العامة التى تلتزم الدولة بتقديمها لمواطنيها . وعندما تصبح الثقافة إحدى الضرورات الأساسية فى حياة المواطنين فى إحدى الدول فذلك شاهد على أن هذه الدولة تضع نفسها حيث تريد فى صف الدول المتقدمة . وحيث تتواضع الثقافة وتبحث عن مكانها فى حياة المواطنين فى إحدى الدول فذلك شاهد على أن هذه الدولة لا تعدو أن تكون دولة نامية تحاول أن تجد لها مكاناً فى السباق الخطير الذى تحاول كل دولة أن تجد لها مكاناً فى حلبته أو فى مضماره .

والثقافة هى الوجه الجميل لعملة واحدة وجهها الآخر هو التعليم . وإذا مضينا فى التشبيه فإن التعليم وهو الخدمة الأساسية التى تلتزم بها الدولة فى مصر العربية هى الوجه المكتوب من وجهى العملة ، أما الثقافة – وهى الخدمة اليافعة العمر التى تحاول الدولة إتاحتها للناس فى بلادنا – فهى الوجه المصور الذى يجلوه الفن للعين المجردة فيمتعها بجمال الصورة وطلعتها قبل أن تجهد العقل والبصيرة بالقراءة والفهم . وإذا كانت الدولة تلزم المواطنين بالتعليم وتسميه فى مرحلته الأساسية التعليم الإلزامى فإن واجب الدولة أن تتيح للمواطنين الحق فى المقابل الجذاب للتعليم وهو الثقافة . من أجل ذلك فإننى أعتبر الثقافة هى الوجه الجذاب للمعرفة

التى تختفى منها صورة المعلم المتجهم وعصا المؤدب ، ورهبة الفصل الدراسى ومحنة الامتحانات الخاصة والعامة .

وإذا كانت الثقافة قد دخلت مضمار الخدمات العامة ، التى تلتزم الدولة بتوفيرها للمواطنين على استحياء شديد منذ السنوات المتوسطة فى القرن الحالى الذى أوشك أن ينصرم ويستسلم لبوادر قرن لاحق ، فإن ضرورتها لحياة الناس قد وضحت وضوحاً لا يحتاج إلى دليل . وكان من أوجب واجبات الدولة أن تلتفت التفاتة قوية نحو هذا القادم على استحياء فى مضمار الخدمات الأساسية وهو الخدمة الثقافية ، وأن تأخذ بناصرها وتكفل لها الاعتمادات والإمكانات . ومع ذلك فقد ظلت الثقافة ولا سيما بعد نكسة يونيو تتنقب برقع الحياء ، وتتوارى أمام سؤالين بالغى الأهمية ، ظلا طويلا يقفان فى وجه الثقافة وهما : هل توفير لقمة العيش للناس أوجب فى ترتيب مسئوليات الدولة أو توفير الثقافة؟ . وهل توفير سلاح الدفاع عن الوطن المستباح ألزم فى ترتيب واجبات الدولة أو إتاحة الثقافة ؟ . وكانت الإجابة المبادرة عن السؤالين إجابة واحدة وهى على ظاهر الأمر إجابة لا يختلف عليها اثنان . وهى أن لقمة العيش أحق وقطعة السلاح ألزم . وبالتالى فقد ظلت الاعتمادات المالية التى ترصد للثقافة تتواضع وتتراجع حتى أصبحت لا تكفى لمواجهة مطلب واحد من مطالب الثقافة . . .

ومن دواعى الأسف أن أقرر باقتناع أن طرح القضية بهذه الصورة أو تقديم السؤالين بهذا الأسلوب قد كان ينطوى على ظلم بين بالنسبة لقضية الثقافة ولمفهوم الثقافة ، ولموقع الثقافة من الإنسان على هذه الأرض . فإذا كان الزاد والعتاد أولى برصد الأموال وحشد الجهود فقد كانت الثقافة وستظل زاداً وعتاداً ، وبغير الثقافة لا يهضم زاد وبغير الثقافة لا يقدح زناد . ولعل ما حدث فى أكتوبر العظيم هو الذى يقودنا إلى هذه الحقيقة . . فقد كانت الثقافة زاد المحاربين ، وقد كانت الثقافة عدتهم فى التوفر على أساليب الحرب ومعدات القتال ، وقد كانت الثقافة هى الشعلة التى ألهبت عزائمهم وشحذت بواعث الإيمان فيهم .

فإذا كان لى أن أتحدث عن دور الثقافة بعد أكتوبر العظيم فما كان يجوز

لى أن أقدم لهذا الحديث بغير ما قدمت من شأن الثقافة وخطرها بالنسبة للخدمات الأساسية التى تلتزم الدولة بتوفيرها ، ومن تعريف للثقافة بأنها الوجه الجذاب للمعرفة الإنسانية والتى تتحول إلى سلوك فى الحياة .

وإذا كان أكتوبر العظيم قد استطاع أن يعبر بنا مفازة النكسة وسواد ظلمتها ، وأن يعبر بنا مرارة الهزيمة لينقلنا إلى آفاق النصر وآلاء الأمل ، فإن دور الثقافة فى هذا العبور وفى هذا الانتقال وفى مرحلة ما بعد النصر هو من أخطر الأدوار وأوجبها بالتصدى والاعتبار .

وإذا سلمنا بأن الثقافة هى الوجه المشرق للعملة وهى الصورة الجذابة للمعرفة وهى محصلة جدول الضرب دون عصا العلم ، وهى ثمرة العلم دون رهبة الفصل ، فقد أصبح من أوجب واجبات وزارة الثقافة ومن ورائها الدولة أن تتيح لجميع المواطنين من أسباب الثقافة ، ومن ألوان الثقافة ، ومن عطاء الثقافة مايلى :

أولا : فى مجال الكلمة المطبوعة أو المخطوطة :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يجد الكتاب الشائق بصوره ، الجذاب بطريقة إخراجه ، الذى يقدم له كل ألوان المعرفة سواء عن نفسه أو عن وطنه أو عن وجوده أو عن عالمه .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد الكتاب الوافى بمضمونه الحافل بمحتواه المتاح بسعره يقدم له حاجته من العلم ومن الأدب ومن الفن بكل ألوانه ومن مختلف منابعه وبكل اللغات التى يحتاج إليها تعليمه .

من حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد الكتاب الذى يستثير رغبته فى المعرفة ، والذى يلبى حاجته إلى الاستزادة ، والذى ينقع غلته من التزود ، وأن يكون سعره فى متناوله أو استعارته مكفولة ميسرة .

من حق هؤلاء جميعاً أن يجدوا المجلة الحافلة بكل جديد فى العلم وفى الأدب وفى الفن .وبخاصة المجلات ذات التخصص ، منها ما يطبع فى مصر ومنها ما يستورد من الخارج من البلاد المختلفة .

من حق هؤلاء جميعاً أن يجدوا كل هذا متاحاً لمن يشاء . ولمن يقدر على شرائه وعلى اقتنائه . ومن حق هؤلاء جميعاً أن يجـــدوه متاحاً لمن لا يملك القـــدرة على الشراء والاقتناء أن يجد الفرصة المواتية للاستعارة والاطلاع فى المكتبات العامة وفى المكتبات الخاصة ، وفى المكتبات المحلية وفى المكتبات المدرسية .

وهذه الحقوق تعمل وزارة الثقافة بعد أكتوبر العظيم على إتاحتها وعلى توفيرها ، ولعل الدولة أن تقدم لها من الاعتمادات ما يكفل لها تحقيق ذلك .

ثانياً : فى مجال الكلمة المسموعة أو المقولة :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يجد الكلمة التى يهفو إلى سماعها فى مسرح خاص بالطفولة ، سواء كان مسرحاً للعرائس والدمى ، أو مسرحاً للأداء الدرامى من لداته الأطفال ، وأن يجد قاعة الموسيقى التى يستمع فيها لألحان الموسيقى العربية والموسيقى العالمية ، وأن يجد قاعة الندوة التى يستمع فيها إلى ألوان من الحوار الذى يغذى رغبته فى المعرفة ، وتطلعه للاستفادة وانجذابه نحو المجهول .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد الكلمة التى تعبر عن مشاعره وتحكى نوازع قلبه وهواتف عقله ، فى مسرح يقدم ما يمتعه وما يصقل مواهبه وما يشحذ قواه ، وينقل إليه روائع المسرح العربى وروائع المسرح العالمى وألوان الفكاهة والمتعة الوجدانية .

من حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد المسرح الذى يستطيع أن يغسل فيه متاعبه وأن ينسى فى الاستمتاع بعطائه كل ما حاق به من جهد وما ألم به من تعب ، من حق هؤلاء جميعاً أن ينسوا صراعات الحياة ومتاعب العمل ومطالب العيش فى سهرة ممتعة ، يتذوقون فيها الفن فوق خشبة مسرح أو قاعة موسيقى أو حلبة من حلبات السيرك ، أو محفل من محافل الأدب والشعر بكل الوسائل الميسرة والتكاليف التى لا تتجاوز دخولهم ومواردهم .

وكل هذا تلتزم وزارة الثقافة بأن تقدمه وبأن تكفله للمواطنين ، وهى حريصة

كل الحرص على ألا يكلفهم من أمرهم شططاً ولا يثقل عليهم أو يقلب متعتهم غماً ويجعل مسرتهم هماً . ولعل الدولة بدورها لا تضن على وزارة الثقافة بما يكفل لها أن تفى بالتزامها وأن تؤدى واجبها وأن تكفل لأصحاب هذا العطاء من الفنانين والموهوبين حقهم فى الحياة الكريمة وفى العطاء المقابل .

ثالثاً : فى مجال الكلمة المرئية بالسينما :

من حق كل طفل من أطفالنا أن يجد الكلمة التى يحبها وأن يراها على شاشة السينما ، سواء فى الأفلام الروائية التى تحكى له من وحى طفولته ومن أداء لداته من الأطفال ما يشبع حاجته وما يوفر له المتعة والموعظة . أو فى الأفلام التسجيلية التى تنقل إليه المعارف فى مختلف ألوانها فى أبواب العلم وأبواب الفن ، ومن حق كل شاب من شبابنا أن يجد الرواية السينمائية التى تمتعه والتى تصقل معرفته بالحياة والتى تتيح له النماذج الطيبة والأسوة الحسنة ، والتى تجعله على بينة مما يجرى فى عالمه والتى تعبر بصدق عن مجتمعه . عن آماله وآلامه ، والتى تبصره وتأخذ بناصره فى مضمار الحياة ، وأن يجد الأفلام التسجيلية والأفلام التعليمية ، وأن تتاح له فرصة تنمية مواهبه وصقلها فى مجالات السينما المختلفة ، سواء فى المعاهد المتخصصة أو فى مراكز التدريب أو فى نوادى السينما وجمعيات الثقافة السينمائية .

ومن حق كل مواطن من مواطنينا أن يجد دار السينما سواء فى القرية أو فى المدينة أو فى العاصمة التى تحسن استقباله بما تقدمه له من الأفلام الجيدة وبما توفره له من الراحة والمتعة ونظافة الموقع ورقة الحاشية واستكمال المرافق ، وألا يقابل بالإهمال أو بالإهانة أو بالاستغلال .

وكل هذا تلتزم وزارة الثقافة بتوفيره وتدبيره ورقابته والإشراف على تقديمه وتقويمه ، وهى مسئولة أمام المواطنين مثل مسئوليتها أمام الدولة التى تلتزم بدورها أن تقدم لها الاعتمادات المالية والإمكانات المادية بالقدر الذى يفى بهذه الالتزامات .

رابعاً : فى مجال الكلمة المصورة فى المتحف والمعرض :

من حق كل طفل من أبنائنا أن يشهد الكلمة المصورة مجسدة فى متحف يروقه ويجتذبه ويستثير نوازع المعرفة وحب الاستطلاع فيه ، وأن يجد المعرض الذى يقدم له الصورة من إنتاجه ومن إبداع لداته ومن تعبير أقرانه ، سواء فى مصر أو فى الخارج ، وأن يجد هناك إلى جانب الصورة من يشرحها له ومن يقربها إلى فهمه ومن يحببها إلى تذوقه .

من حق كل شاب من شبابنا أن يجد إبداع يراعه وتصوير ريشته ونتاج موهبته ومواهب عشيرته من الشباب مسجلة ومقدمة فى معارض تملأ حياة الناس فى الريف والحضر ، وأن يلتقى بأقرانه فى صعيدها وأن يدور بينه وبينهم حوار حول معانيها ومراميها وألوان الإبداع فيها .

من حق كل مواطن أن يجد المعارض التى تغرى بالارتياد وبالمشاهدة وبالإمتاع وبالتفاعل مع النفس والتخاطب مع الوجدان ، وأن يجد المتاحف التى يستعيض بارتيادها عن معاهد الفنون لأنه يجد فيها مدارس الفن مجتمعة ونفحات الفنانين متقابلة . ويجد فيها الراحة والمتعة ويلتمس فيها الدراسة والهواية .

من حق هؤلاء جميعاً أن تجلى لهم روائع الفن من آثار العصور الخوالى ، من حقهم أن يعايشوا مصر الفرعونية وأن يمجدوا مصر القبطية ، وأن يؤصلوا مصر الإسلامية وأن يستجلوا روائع الماضى وأن يمجدوا الشخصية المعاصرة ، وكل هذه الحقوق تلتزم وزارة الثقافة بأن تكفلها وأن تقدمها للمواطنين وأن تجعلها فى متناول الجميع سواء كانوا فى العواصم أو فى الأقاليم . بل إن حق هؤلاء الذين حرموا طويلا من ثمرات الثقافة وإبداع الفنون والآداب أن يعوضوا بإتاحة كل الفرص لهم بواسطة بيوت الثقافة وقوافل الثقافة ، وأن تكرس الجهود لمدهم بالزاد الثقافى فى مختلف المجالات . وعلى الدولة أن تؤدى بدورها حق هؤلاء فيما ترصده من الاعتمادات وما توفره من الإمكانات .

وبعد فإن دور الثقافة بعد أكتوبر العظيم أكبر وأشمل من أن تتسع له هذه

الصفحات ، ويكفى أن تكون رسالة هذا الشعب هو أن يعيد صياغة الحياة على أرضه . وإن أول أداة وأهم أداة لصياغة الحياة هى الإنسان . فإذا كان واجبنا أن نعيد صياغة الحياة فإن أوجب واجباتنا أن نعيد صياغة الإنسان فهو صانع الحياة وبناؤها المقتدر . وهو الذى صنع لهذه الأمة النصر وهيأ لها الكرامة واسترد لها الاعتبار ، فمن حقه علينا أن نوفر له كافة الوسائل لكى يعيد صياغة نفسه بصورة أفضل لحياة أفضل . . .

والإنسان على هذه الأرض من وجهة نظر الثقافة واحد من اثنين :

الأول : هو المثقف صاحب العطاء الذى يوفر الثقافة من عطاء موهبته وملكاته أو من عطاء دراسته وتحصيله . ودور وزارة الثقافة بالنسبة لهذا الإنسان أن توفر له كل أسباب الرعاية المادية والأدبية وأن تعمل على تنمية قدراته على العطاء وأن تكفل له كامل الحرية فى الانفعال والمعاناة والتعبير وحرية القنوات الموصلة لعطائه . وأن تضع إمكانات الوزارة فى عونه وفى تقديم عطائه وإنتاجه وحصيلة دراسته للمواطنين .

الثانى : هو المواطن صاحب الحق فى العطاء الثقافى بمختلف ألوانه من أدب وفن وعلم ومن مختلف الينابيع سواء العربية أو الإنسانية . ودور وزارة الثقافة بالنسبة لهذا الإنسان أن تمكنه بل تدعوه لممارسة حقه فى تلقى هذا العطاء والانفعال به انفعالا ينعكس على سلوكه فى المجتمع وتصرفه فى الحياة تصرفاً أفضل يضاعف من قدرته على الإنتاج من أجل البناء والتنمية .

على أن رسالة الثقافة بعد أكتوبر العظيم لا يمكن أن تنهض بها وزارة الثقافة منفردة أو بمعزل عن الوزارات الأخرى فى الدولة بل لابد لها من تعاون مخطط ومدروس مع أغلب الوزارات وفى مقدمتها وزارة الإعلام التى تملك من الوسائل أقدرها وأسرعها على نقل العطاء الثقافى وبثه بين المواطنين سواء فى داخل البلاد فى مختلف المواقع وبخاصة فى المواقع الريفية والنائية التى لا يتيسر الوصول إليها بالأدوات الثقافية المألوفة . كالمسرح والسينما ، بل فى خارج البلاد فى الوطن العربى الكبير وفى الدول الأخرى .

وكذلك بالنسبة لوزارتى التربية والتعليم العالى بالمشاركة فى إخراج الكتاب المدرسى على أفضل صورة تجعله جذاباً مرغوباً وفى تقديم الوسائل التعليمية عن طريق المصورات والأفلام التسجيلية والتعليمية وتنمية هوايات الطلبة والطالبات فى مختلف الفنون واستثمار إمكانات المدارس والمعاهد والجامعات المادية والبشرية فى امتداد رقعة الثقافة والمزج بين الثقافة والتعليم .

إن التعاون الكامل بين وزارة الثقافة وبخاصة قطاع الآثار وبين وزارة السياحة أمر بالغ الأهمية وهو بلا شك سيؤدى إلى ازدهار السياحة الثقافية ، وهى من الأنشطة الهامة التى تمثل عائداً ضخماً بالنسبة للدول ، وكذلك ازدهار الثقافة السياحية وهى بدورها عامل من عوامل الإثراء التعليمى والثقافى .

ومع وزارة الشباب يقوم تعاون بناء من أجل أهم قطاع فى حياة الأمة . وهو قطاع الشباب وتلبية احتياجاته فى مجالات الثقافة المختلفة سواء من الكلمة المطبوعة أو الكلمة المسموعة أو الكلمة المرئية أو المصورة ، والتعبير عن طاقاته الإبداعية بالمشاركة فى أنشطة نوادى الشباب والرياضة والساحات الشعبية والأندية الريفية .

ومع وزارة الصحة فى نشر الثقافة الصحية بكافة الوسائل المتاحة لوزارة الثقافة من كتاب إلى سينما إلى مسرح إلى معرض ومتحف وبالنسبة لتنظيم الأسرة فإن قصور ومراكز وبيوت الثقافة وقوافلها تستطيع أن تقوم وهى تقوم فعلا بدور فعال وتسهم بالندوة والمحاضرة والفيلم فى التوعية بذلك .

ومع وزارة الزراعة فى الثقافة الزراعية والإرشاد الزراعى والتنسيق بين القوافل الزراعية والقوافل الثقافية ، فى توصيل المادة الثقافية إلى المواطنين فى المناطق الريفية والنائية .

ومع وزارة الشئون الاجتماعية فى معالجة المشكلات الاجتماعية المتعلقة بحياة الأفراد وحياة الأسر ومعالجة الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد التى لا تتفق مع القيم الحقيقية لمجتمع يقوم على العلم والإيمان .

والتعاون بين وزارة الثقافة ووزارتى الأوقاف وشئون الأزهر فى نشر الثقافة الأثرية والثقافة الدينية والاحتفال بالمناسبات الإسلامية احتفالا يجردها من الشوائب .

والعمل على تثبيت القيم الدينية والمعتقدات السليمة .

أما التعاون مع وزارة الخارجية فيبرز فى مجال علاقات الثقافة الخارجية سواء بالدول العربية أو الإسلامية أو الأجنبية ، وكذلك بمختلف المنظمات والهيئات الدولية وعقد المعاهدات والاتفاقات والبرامج التنفيذية لتقوية هذه العلاقات وتحقيق التبادل الثقافى والفنى بشتى الصور التى تعود بالنفع المؤكد على الجانبين من تبادل الخبرات والوفود والفرق الفنية والمعارض ، ولا شك أن نموذجاً واحداً من أبرز النماذج الناجحة فى هذا المضمار معارض آثار توت عنخ آمون التى أقامتها وزارة الثقافة فى اليابان وفى فرنسا ثم فى إنجلترا وأخيراً فى الاتحاد السوفييتى ، وما حققته سواء من العائد المادى أو الأدبى لشاهد على صورة من أجمل صور التعاون .

وكما أسلفنا فإن أكتوبر العظيم قد زاد فى إحساس وزارة الثقافة بمسئوليتها عن تلبية حاجة المواطنين ، بل حاجة الأشقاء من أبناء الوطن العربى ، أو على الأصح تلبية حق هؤلاء جميعاً بمختلف أعمارهم وفئاتهم فى العطاء الثقافى بمختلف ألوانه ومن أجل ذلك فقد وضعت خطتها وتخطيط مشروعاتها وأنشطتها من الآن إلى عام ٢٠٠٠ أو إلى مستهل القرن الحادى والعشرين على أساس تحقيق حق كل مواطن فى العطاء الثقافى باعتباره أمراً حيوياً كحاجته إلى الغذاء وإلى السلاح ليذود به عن وطنه .

وإذا كان لى أن ألخص دور وزارة الثقافة بعد أكتوبر العظيم فهو العمل على تحقيق المعرفة الجذابة والمتعة الوجدانية للإنسان بكل الوسائل المتاحة أو التى يستنبطها العلم فى المستقبل . إسهاماً منها فيما دعا إليه الرئيس أنور السادات من إعادة بناء الإنسان من أجل دفع التنمية الشاملة لإقامة مجتمع العلم والإيمان مجتمع الكفاية والعدل مجتمع الرخاء والأمان .

والله ولىّ التوفيق